

اللغة العربية في ضوء مفاهيم لسانية عرفانية

Teaching Arabic in light of cognitive linguistic concepts

*- د. محفوظ غزال

*- المعهد العالي للعلوم الإنسانية، مدين، تونس.

*- ommi5520002000@yahoo.fr

تاريخ القبول: 2023-05-03

تاريخ الإرسال: 2023-04-01

*- الملخص:

إنَّ ما تمرُّ به اللغة العربية من تعثُّرٍ تدريسيٍّ وتعييراً وكتابةً ومساوقة للنسق الحضاري المتسارع يوجب على الباحثين، في ما نرى، أن يلتمسوا سبلا جديدة لتطوير بحوثها وتطوير طرائق تدريسها لنبت فيها من روح الجدة ما يدفع شبح ثقلها المخيم على أغلب دروسها. وقد تكون مجلوبات المعارف الحديثة كفيلة بأن تساق متغيّرات العصر، لأنَّ ثقافة الصورة وانتشار الذكاء الاصطناعي يوجبان علينا إيجاد تقارب بين هذا المجال الرقمي الجديد وما ينشئ عليه الإنسان متى أدمنه وبين اللغة العربية التي هي من الثراء ولا تنساع بمكان تشهد به المدونات التراثية. وقد وجدت في العلوم العرفانية وتحديدًا في اللسانيات العرفانية من المفاهيم والنظريات ما يمكن أن يكون سبيلًا للتحيين والتجديد وخاصة من خلال نظريتيّ "الطراز" و"المزج" العرفانيين.

الكلمات المفتاحية: اللغة العربية- التدريس- اللسانيات- العرفانية.

Abstract:

The stumbling that Arabic language, whether in teaching, expression and writing, is going through, and its keeping up with the accelerating cultural patterns, requires researchers, in our opinion, to seek new ways to develop its research and develop its teaching methods, in order to infuse it with a spirit of novelty that will push away the specter of its heaviness looming over most of its lessons. The introductions of modern knowledge may be sufficient to keep pace with the changes of the times. The culture of images and the spread of artificial intelligence indeed require us to find a middle ground between this new digital field and what a person grows up with when they are addicted to it on the one hand and the Arabic language, which is rich and not as extensive as the heritage blogs attest on the other. Some of the concepts purported by cognitive sciences, especially in cognitive linguistics, could be quite innovative, namely those presented by the "Prototype Theory" and "Blend Theory."

Keywords: Arabic language - Teaching- Linguistics- Cognitive.

*- مدخل:

اللغة، أية لغة، تمرّ في مراحل حياتها بمتغيّرات حسب الأنساق الحضارية، فمتى تسارع النسق الحضاري تسارعت المتغيّرات ومتى تباطأت تباطأت، وفي الحالتين لا تفتأ تأثير أقلام الباحثين خاصة في المجالات التي تكون فيها اللغة مقصودة لذاتها أو موظفة في مجال آخر في سياق ما يُعرف باستمداد العلوم. واللغة العربية منذ تشكّل نحوها وانتقالها من مرحلة النحو التقعيدية إلى مرحلة أصول النحو التعليلية خلّدت تراثاً في الفكر اللغوي يمكن أن نستخلص منه ملاحظتين مهمّتين: أولاها أنّها لغة وافرة الثراء من حيث المعجم والاستعمال، وثانيتهما أنّها انطاعت لأن تمتزج بوافد اليونان في مجال البحث اللغوي فتمثّله النحاة أغلبهم، ونقدوه، وأضافوا إليه، ويمكن أن نجد في مفتاح العلوم للسكّاكي دليلاً مقنعاً على ذلك.

هذه الخاصية الثانية هي التي منها انطلقنا للاستفادة من مجلوبات المعارف الحديثة، وتحديدًا للاستفادة من العلوم العرفانية Cognitive Sciences التي بحكم اشتغالها على الذهن توسّمتنا أن تكون سبيلاً إلى تحيين دروس العربية في هذا الظرف الموسوم بمأزق اللغة الحضاري. وقد رأينا في فرع من فروع العلوم العرفانية، وهو اللسانيات العرفانية Cognitive Linguistics، ما يُطمع في إحياء طرائق تدريس العربية التي كاد الغزو الثقافي يقتلها لأنّها حافظت على كثير من ضروب التلقين الذي لا يمكن أن يرغّب في تدريس اللغات عموماً ولا يمكن، أمام هيمنة الصورة وانتشار الذكاء الاصطناعي، أن يصمد في نظرنا أبداً.

1/ مقدّمة نظرية عن العلوم العرفانية وموقع اللسانيات العرفانية منها :

العلوم العرفانية ترجمة للمصطلح الغربي Cognitive sciences، وقد اختلفت ترجمته بين الأقطار؛ فمن أهل المشرق من سمّاها "علوم العقل"، ومن أهل المغرب من سمّاها "علوم المعرفة" و"العلوم الإدراكية"، وفي تونس من ترجمها "العلوم العرفانية" وهي ترجمة الأزهر الزناد، وأكثر الباحثين يترجمونها "العلوم العرفانية" كتوفيق قريّة وصلاح الدين الشريف وبن غربية وغيرهم من الجامعة التونسية. ويُقصد بالعرفانية اتجاه "ناتج عن تطور البيولوجيا ولا سيما علم وظائف الأعصاب وتقدّم الباحثين في سبر أغوار الدماغ وما نتج عنه من آمال في فهم الوظائف العليا كالإدراك والذاكرة واللغة

وغيرها"⁽¹⁾. ويمكن أن نستخلص من ذلك كون العلوم العرفانية هي مجموعة علوم اشتركت في المنوال والغاية واختلفت في الآليات، لكنّها تتبادل المفاهيم في ما بينها في سياق منوالها العرفاني.

وقد تشكّلت هذه العلوم نسيجاً متماسكاً منسجماً، وهذا ما عبّر عنه "راستي" في ما نقلناه عن أميرة غنيم: "العلوم العرفانية تجمعت ضمن أقطاب ثلاثة هي أولاً قطب العلوم الإنسانية وتضم اللسانيات والفلسفة وعلم النفس وتهتم بالعمليات العرفانية العليا التي تميز الإنسان بوصفه كائناً عاقلاً. أمّا القطب الثاني فهو قطب علوم الطبيعة ويضم علوم الأعصاب والرياضيات والفيزياء وتهتم بالعمليات العرفانية الدنيا أي العمليات المتعلقة بإدراك العالم الخارجي. وأما القطب الثالث فهو علوم الهندسة ويضم الإعلامية والذكاء الاصطناعي ويعنى بالتمثيل الاصطناعي للعمليات الذهنية البشرية. وبالنظر إلى عدد الاختصاصات المستفيدة من نتائج نظرية المزج فالراجح أنها نظرية صالحة لمعالجة ظواهر منتمة إلى الأقطاب الثلاثة على السواء"⁽²⁾.

والبحث في الفكر وعلاقته باللغة توجّه في الحقول المعرفية ماضيه طويل وتاريخه قصير. فالبحث في المخفي من أمور التفكير منبث في ثنايا الفكر الفلسفي اليوناني تكشفه مقولة متداولة عن الفلسفة اليونانية مفادها أنّه لا تفكير خارج اللغة. وإذا "كان تاريخ العلوم العرفانية حادثاً فإنّ ماضياً قديماً يعود إلى أصول الفلسفة الغربية ويمتد إلى أصول بعض التيارات العلمية الحديثة"⁽³⁾. وبذلك "يمكن أن نعود بالأسباب المباشرة لظهور هذه العلوم (العرفانية) إلى منتصف السنوات الثلاثين ونهايات السنوات الأربعين. فقد ظهر مقالان للانقليزي آلان تورينق المشهور في علم المنطق أطراً رمزيّاً تاريخيّهما"⁽⁴⁾.

ولكن متى نحن نظرنّا إلى المسألة من وجهة نظر إدراكية كان البحث حديثاً ومعاصراً في آن؛ لأنّ العلوم العرفانية ظهرت في النصف الأول من القرن العشرين في بدايات متعثرة لم تستقم منوالاً يحكم تلك الفترة، إذ تعود نشأة هذه العلوم، حسب أغلب الباحثين وأرجح الأقوال، إلى ثلاثينيات القرن العشرين عند اكتشاف ما يُسمى المعالجة الآليّة للمعلومات، والتي ستتطوّر لتكوّن مفهوم "الذكاء الاصطناعي"، ثمّ لما تطوّرت الأبحاث ورفعت شعارها المشترك، وهو "فهم الفهم"، اجتمعت علوم مختلفة لتوجّه جهودها نحو هذه الغاية. فنحن نعلم عن عالمنا أدق التفاصيل ونفهمها ولكننا لا نفهم كيف تم ذلك الفهم. يقول جيل

فوكوني "": Gille Fauconnier المفارقة أننا نعرف عن أبعد المجزآت أكثر مما نعرف عن عالمنا... ونبدو مهتمين بالعالم من حولنا أكثر من اهتمامنا بأدمغتنا وأذهاننا"⁽⁵⁾. ويقول الشريف: "بات من المشروع التفكير في علوم شتى مهمتها النظر في معالجة الدماغ للمعلومات خزنا وتحليلا وتأليفا وخلقاً كعلوم الأعصاب وعلم النفس وعلم المنطق والإعلامية واللسانيات وهي علوم وإن اختلفت في أصولها الأولى ومناهجها ونظرياتها وغاياتها فقد اتفقت على أن الذهن هو مجموعة الوظائف الدماغية المعالجة للمعلومات على صورة طبيعية"⁽⁶⁾. ويقول قريرة: "العلوم العرفانية... مصطلح يضم بين دفتيه جملة من المعارف والفنون التي تتفق في تناولها بالشرح والوصف كلّ ما يتعلق بالقدرات الذهنية وعمليات الذكاء وخصوصاً منه الذكاء البشري"⁽⁷⁾.

ومن هذا المنطلق، يمكن أن نقول إنّها علوم تبحث عن كَيْفِيَّة وقوع الفهم في أذهاننا، لذلك هي تفرّق بين (دماغ/ ذهن/ عقل)؛ فالدماغ هو المكوّن البيولوجي ويقابل في مجال الإعلامية ما يُعرف بالHARD، والذهن هو البرمجيّة التي يشتغل بها الدماغ ويقابل في مجال الإعلامية ما يُعرف بالSoft والعقل تطبيقاً من بين تطبيقات أخرى يشتغل بها النظام العرفاني ومن بين هذه التطبيقات اللغة. وعلى هذا الاعتبار فاللغة ليست عضواً بيولوجياً كما ذهب إلى ذلك تشومسكي وهي النقطة التي نوقش فيها في لسانياته التوليدية من بين نقاط أخرى.

وتبعاً لذلك، فاللغة من منظور عرفاني مظهر من مظاهر أخرى عرفانية عند الإنسان وليست جهازاً متعالياً على الجسد ولا على الوعي ولا على العقل، بل هي النظام الرمزي الذي ينقل لنا تمثلاتنا عن الأشياء في الذهن. ومن هنا ستنشأ نظرية تُعرف بنظرية الذهن المجسّد The Embodied mind. تقول غنيم "ليست اللغة رغم فرادتها ضمن الجهاز العرفاني كفاءة منفصلة عن سائر الكفاءات الذهنية، ولا يفسر ظهورها بحدوث صدفة وراثية سانحة أو سلسلة من التحولات التكوينية في الجينات البشرية"⁽⁸⁾.

2/ أهمّ المفاهيم العرفانية ذات الصلة بدروس العربية:

*- النحو العرفاني:

انسرب من اللسانيات العرفانية "النحو العرفاني" **Cognitive grammar** وهو مقارنة عرفانية للنحو تتمحور حول تأكيد كون النحو ظاهرة رمزيةً دورها متعلق بترميز خطاطات البنى الإدراكية، ولكن ليس البعد الرمزي خصيصا بالنحو بل يجتمع مع المعجم ليكون مسترسلا من الأبنية الرمزية **Un continuum de constructions symboliques**. وفي سياق النحو العرفاني ظهرت توظيفات مختلفة لمفاهيم عرفانية رأينا أنه قد يكون من المهم والوظيفي الاستعانة بها في دروس العربية من حيث كون اللغة، أية لغة، هي في علاقة مباشرة بالذهن والتمثلات والتصورات. يقول الزنّاد: "العرفنة ملكة تشتغل في جميع الأنشطة البشرية إنتاجا وتأويلا وما الخطاب إلا مظهر من جميع ذلك" (9).

1/2 مفهوم الطراز:

يُعدّ "مفهوم الطراز" مفهوما عرفانيا أساسا منقولا عن علم النفس العرفاني وخاصة في أبحاث "إليانور روش". ورغم كون أساسيات الطراز منقولة عن علم النفس انتشر هذا المفهوم وكان له تأثير جذري على اللسانيات العرفانية والنحو العرفاني، يقول لايوف Labov "إن كانت للسانيات قيمة تُعتبر فهي ماثلة في الأبحاث المتعلقة بالتصنيف" (10)، فنظرية الطراز محاولة في فهم كيفية تنظيم عناصر المَقُولَة داخل الذهن وتصنيفها. وانتهت أبحاث روش، ومن معها ومن بعدها، إلى أنّ الطراز "بنية مجردة" حولها تحوم الوحدات اللغوية في درجات من القرب والبعد في ما يتعلق بالتمثيل الطرازي، إذ لعناصر المقولة انتظام داخلي أي أنّ بعضها أفضل تمثيلا للطراز من أخرى.

وتتصل نظرية الطراز بعملية المَقُولَة، والمَقُولَة هي "أن نضع في خانة واحدة أشياء تجمع بينها روابط معينة" (11)، أي الطريقة التي بها نصيّف الوحدات اللغوية في أذهاننا وهو في الغالب تصنيف غير واع يقول عبد الله صولة "إنّ المَقُولَة نشاط ذهني يكون في الغالب عن غير وعي منا" (12). وإضافة إلى كون عملية التصنيف تكون عن غير وعي منا هي معقدة إلى درجة كبيرة، وقد مرت عبر تاريخ البحث فيها بمرحلتين كبيرتين، فهذا التصنيف كان مع أرسطو على أساس الشروط الضرورية والكافية أي لكي ينتهي عنصر ما إلى مَقُولَة يجب أن تتوفر فيه كل شروط تلك المقولة وإلا فإنه لا ينتهي وهذه الشروط يمكن أن تلخص في ما يلي (13):

-المقولات هي كيانات لها حدود واضحة التحديد.

- انتماء وحدة مخصصة إلى مقولة ما يخضع لنظام الخطأ والصواب، ف"س" يمكن أن يكون كلبا أو لا يكون عندما يكون له أو لا يكون له الشروط المعيارية لمقولة الكلب.

-إن عناصر المقولة نفسها لها وضعية مقولية متساوية، بما أن كل عنصر يمتلك الخصائص المشتركة المقترحة في تعريف المقولة فكل عنصر في المقولة هو عنصر جيد مثل العناصر الأخرى".

وهذه الصرامة في الشروط الضرورية والكافية جعلت قوائم التصنيف في الذهن عديدة. ومن الأمثلة المتواترة عند العرفانيين في هذا السياق مثال مقولة الطيور، فإذا كانت الشروط الضرورية والكافية تعني ألا ينتمي إلى هذا المقولة إلا ما توقّر فيه شرط وجود المنقار وصفة كونه بيوضا وصفة الطيران، فإنّ النعامة والبطريق لعدم قدرتهما على الطيران لا يصنّفان من الطيور. وهذا ما يكشف صرامة معيار الشروط الضرورية والكافية وانغلاق قائماته وتعدّدها. ولذلك كان المعيار الذي جاءت به "روش" قائما على انفتاح أكثر، فقد استفادت "روش" في مجال علم النفس العرفاني من كتابات "فيتجنشتاين" الفلسفية وخاصة في ما يتعلّق بهذا الجانب، فقالت مستفيدة منه: إنّ عملية التصنيف تتم في أذهاننا على أساس تجميع وحدات تحوم حول المجال نفسه، ولكن واحدة من هذه الوحدات لها وجود طرازي؛ أي أنّها تمثّل العنصر المتوقّر على أكثر صفات تلك المقولة وبقية العناصر تحوم حوله في قرب وبعد اتّصالي مع الطراز. وعلى هذا الأساس يمكن أن يعود البطريق والنعامة إلى قائمة الطيور في التصنيف ولكن بدرجة تمثيل طرازي أقل.

وقد شهدت نظرية الطراز تطوّراً، فبعد هذه المرحلة التي تُعرّف بنظرية الطراز الأصلية، جاءت مرحلة نظرية الطراز الموسّعة والتي وظفت فيها "روش" مفهوم التشابه الأسري" المأخوذ من "فيتجنشتاين"، وقالت إنّ الطراز بنية ذهنية مجردة تملؤها في كلّ مقولة وحدة لغوية ما تتغيّر وفق ضوابط لغوية ونفسية واجتماعية وثقافية ودينية وأنثروبولوجية. والعناصر الأخرى المكوّنة للمقولة تتعالق مع الطراز تعالق التشابه الأسري؛ أي أنّ الانتماء لا يوجب التماثل. وقد مكّنها هذا الطرح من توسيع نظرية الطراز، وتوسيع القوائم التي يصنّف وفقها الإنسان، وأصبحت غير منغلقة بتلك الشروط الصارمة فقد

يكفي شرط واحد لانتماء عنصر "س" إلى مقولة "أ"، ولكن انتماءه موسوم بالبعد عن الطراز؛ أي أنّ درجة تمثيله الطرازي ضعيفة، ورجوعاً إلى مقولة الطيور أعلاه، نقول إنّ الحمامة أقرب تمثيلاً، طرازياً إن لم تكن هي الطراز في بعض المناطق، من البطريق والنعامة. وقد رأينا أنّ هذا المفهوم يمكن أن يُوظف في تدريس العربية للناطقين بها والناطقين بغيرها في كثير من مناشط المادة. ففي تدريس المعجم في محور ما يمكن أن يقيم الأستاذ علاقة انتماء عناصر مختلفة لحقل معجمي واحد وينظر أيها أكثر طرازية لأنه سيمثل العنصر الذي إليه سيقس بقية العناصر. ومثال ذلك في مجال تدريس الشعر الجاهلي في تشكيل صورة الفتى يمكن أن يوجد جملة العناصر المكونة للصورة كالشجاعة والقوة والكرم والنجدة والصبر والإيثار وغيرها من الكلمات التي تكوّن مفهوم الفتوة، ويمكن أن ينتهي باستقراء القصائد إلى أنّ الصبر والشجاعة والكرم صفات طرازية، ولعل الشجاعة أهمها لأنها تشمل بعدين شجاعة المواقف في الحروب والغزوات وشجاعة متصلة بعدم الخوف من نائبات الزمان وهو ما يتصل بالكرم والإيثار فالشجاع كريم غالباً. ووجه الاستفادة من نظرية الطراز في تدريس المعجم تظهر حتى في تحديد جملة الكلمات التي يمكن أن يثري بها المتعلم استعماله وإنتاجه الكتابي لأنه سيتذكر حقلاً معجمياً متصلاً لا كلمات منثورة متباعدة، وليس من الضروري أن يعلن الأستاذ أن ما اشتغل وفقه يسمى "نظرية الطراز" بل يمكن أن يدرس معتمداً نظرية الطراز دون توسع في الجانب النظري فيكتفي بتحديد العنصر الطرازي محيلاً على العناصر الحائمة في فلك العنصر الطرازي قريباً وبعداً وهو ما يعين المتعلم أكثر على تمثّل ذلك المجال، بل ويمكن للأستاذ من خلال ذلك أن يكشف كونه لا وجود لترادف بل درجات تمثيل طرازي تقترب وتبتعد من الطراز فالكرم طرازي وحوله يحوم الجود والندى والإيثار وغير ذلك من الوحدات داخل فلك معجمي واحد.

2/2 مفهوم المزج Blend:

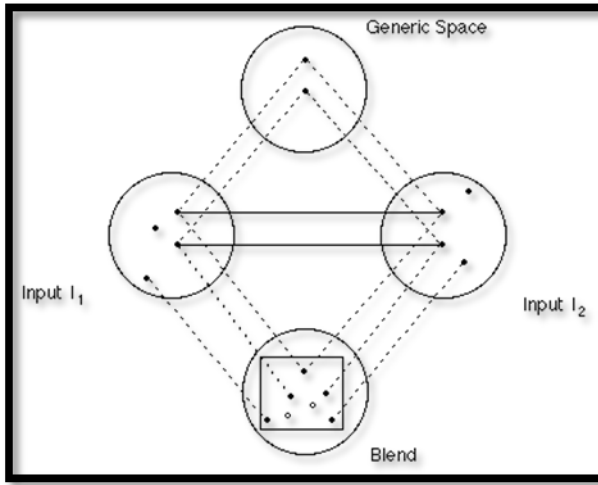
يُمثل المزج آخر تصور إجرائي لفهم الاستعارة في النحو العرفاني وهو مفهوم مرّ بمراحل ليست حكراً على عالم بعينه بل هي مشتركة مترابطة ومتسلسلة. فحين ظهر كتاب "الاستعارات التي نحيا بها" للباحثين "لايكوف وجونسون" حدث منعطف حقيقي في تدريس البلاغة ذلك أنّهما انتهيا إلى كون الاستعارة ليست عملية تشابه بين عنصرين أحدهما مشبّه

والآخر مشبّه به بل هي عملية تمثّل، والتمثّل والتصور مصطلحان عرفانيان بارزان في تفسير ما يحدث في أذهاننا وأن التفكير ومعالجة المعلومة، هذا التمثّل يكون انطلاقاً من ميدان أول يسمونه الميدان المصدر إلى ميدان ثان يكون الميدان الهدف. فقولنا "لقيت أسداً" نقصد به رجلاً في شجاعة الأسد ومعناه أنك حين رأيت الرجل انطلقت من صورة الأسد وهو الميدان المصدر لتصل إلى صورة الرجل وهو الميدان الهدف. ويجب أن يكون الميدان المصدر من المعارف المتقررة في الأذهان والراسخة لأنها ستكون بمثابة المَعْلَم في عملية التمثّل.

بهذا التصور خرجت الاستعارة من مجرد كونها زينة لفظية وحلية بلاغية إلى دائرة التمثّل والتصور والإدراك، ولم تعد الاستعارة مهارة خارقة يؤتاها البليغ دون الناس بل هي ممارسة يومية لأنّ أذهاننا مزودة بآلية استعارية "نحيا بها". ثم تطورت هذه النظرية مع لايكوف في ما يُعرف بالاستعارة المفهومية وهي التي بمقتضاها يرى أنّ تمثّلنا الاستعاري هو تمثّل مفهومي ففي مثال الرجل والأسد تمثلت مفهوم الرجولة شجاعة واستنفرت لها من الوحدات أكثرها طرازية وهو الأسد بدليل تسميته "ملك الغاب" وقد استطاعت الاستعارة المفهومية أن تؤكد بشكل أكثر كون الاستعارة والبلاغة عموماً ليست متعلقة باللفظ، باللغة، بل هي متعلقة بالتصور والتمثّل فهي نمط تفكير لا وسيلة تعبير.

ومثّل "المزج" آخر مراحل هذا التحليل البلاغي حيث انتهى "جيل فوكوني" و"مارك تورنر" وهما صاحبا هذا المفهوم إلى كون الاستعارة تقع بانتخاب "دخل أول" ثم "دخل ثان" من الفضاء الجامع في الذهن ليقع انتخاب جملة الصفات التي تنتمي من الدخّل الأول إلى الدخّل الثاني لننتهي في الفضاء الرابع إلى فضاء المزيج وهو الفضاء الذي تولد فيه الاستعارة مستفيدة من هذا الإسقاط. يقول "فوكوني": "في المزيج يتم إسقاط بنى الفضاءات الذهنية الدخّل على فضاء ذهني مزيج، يكون الإسقاط انتقائياً... الاستدلالات والحجج والأفكار المطوّرة في المزيج يمكن أن يكون لها تأثير على عرفاننا، تقودنا إلى تغيير الفضاءات الدخّل الأصول وإلى تغيير نظرتنا للمواقف المثارة"⁽¹⁴⁾.

ويبيّن أنّ نظرية المزج قد استفادت الاستفادة الكبيرة من نظرية الفضاءات الذهنية لجيل فوكوني. ويمكن أن نوضح مفهوم المزج من خلال الرسم التالي⁽¹⁵⁾:



هذا التصور مهم في نظرنا في ما يتعلق بتدريس العربية فعملية المزج لا تقتصر فقط على الاستعارة بل هي نشاط يومي أيضا فمن أشكال المزج "المزج العجائبي بين مقولتي الأسد والإنسان في تمثال أبي الهول [و] المزج بين مجال العالم الحيواني ومجال العالم البشري في كيلة ودمنة لابن المقفع وبين العالم المرئي والعالم الغيبي في التوابع والزوابع لابن شهيد"⁽¹⁶⁾. وهو ما يؤكد أن بإمكان الأستاذ توظيف المزج حتى في تضمين معاني الحروف وفي المشترك اللفظي والدلالي وغير ذلك. ولذلك يرى فوكوني وتورنر أن المزج "حاضر في كل أنماط التفكير والتخاطب وليس مختصا بالنشاط اللغوي دون غيره"⁽¹⁷⁾. وتفسير ذلك دائما من خلال عبارة تورنر أن المزج "عملية شائعة يومية ضرورية لاشتغال الذهن البشري اشتغالا روتينيا وليست شيئا خارقا أو مكلفا"⁽¹⁸⁾.

ومفهوم المزج لا يقف في تصور العرفانيين عند حدود الظاهرة اللغوية بل هو مفهوم حاضر في عملية التفكير وكيفية تمثّل الأشياء وتصورها، تقول أميرة غنيم: "ستنوع النظرية (نظرية المزج) الأمثلة الشاهدة على المزج بوصفها آثارا موضوعية لهذه العملية التخيلية الخفية متعددة الجمع بين مجالات يصعب أن نرى للوهلة الأولى جامعا بينها فمن المزج في مجال الرياضيات والإعلامية والعلوم الحديثة ستترصد النظرية آثار المزج في الطرائف والمُلح والمعلقات الإشهارية والسينما والرسوم المتحركة والسياسة والأدب بل إنها ستلفت النظر إلى أهمية المزج لا في النشاط الذهني فحسب بل كذلك عند تعلم

نشاط حركي جديد فبفضل تعويله على علاقات المماثلة والتباين وغيرهما من العلاقات التصورية التي سيجتهد أصحاب النظرية في استخراجها يؤدي المزج دورا لا يستهان به في تكييف سلوك المتعلمين باتجاه اكتساب مهارة جديدة بالانطلاق من مهارة موجودة سلفا⁽¹⁹⁾.

ويمكن أن نفهم هذا الانتشار لحضور المزج في أنماط تفكيرنا من خلال ما أكد عليه صاحبا النظرية مارك تورنر وجيل فوكوني فقد قاربا مفهوم المزج "بوصفه آلية ذهنية تخترق الأنشطة الإدراكية والحركية وتنظم التفاعل الحسي مع العالم الخارجي وتتحكم في التفكير المجرد وفي التفكير البسيط وتسير التجارب اليومية وتسمح بالخلق العلمي والفني والأدبي"⁽²⁰⁾.

وعلى اعتبار "كون كل المنجزات الإنسانية من آداب ونحت ورسم وموسيقى وعلوم إنسانية وعلوم صحيحة وعلوم تجريبية منبثقة عن الملكة التصورية نفسها"⁽²¹⁾ يمكن أن نقول إن مفهوم المزج يمكن أن يوظف في مناشط مختلفة من التدريس عموما وتدریس العربية تخصيصا بل وربط ملكة التفكير المزجي في مادة من مواد التدريس بغيرها من المواد وهو ما يسهل المقاربات الجديدة لتطوير التدريس. فتدريس البلاغة مثلا على أساس الرسم المبين أعلاه قد يخرج الدرس البلاغي من ثقله وخاصة ما يتعلق بتصنيف أنواع الاستعارة (تصريحية ومكنية وتبعية وأصلية وغير ذلك) الذي لا يوظفه المتكلم بل يبقى أسير الدرس البلاغي والاختبار الذي ينجزه المتعلم في حينه ثم ينسى كل شيء ولا يبقى سوى لفظ الاستعارة في ذهنه. ولذلك نرى أنَّ هذا المفهوم قد يساهم بقدر كبير في تجديد درس البلاغة لأنها أساسية في عملية التخاطب فاعتبار المزج آلية تفكير يجعل الاستعارة يومية كما قال صاحبها كتاب الاستعارات التي نحيا بها أي أنَّ الاهتمام بجديد الأبحاث وتوظيفه هو سعي متواصل لتيسير العملية التعليمية.

وبناءً على ما سبق فإن تدريس الاستعارة من منظور عرفاني مختلف عن تدريسها وفق المنوال التقليدي البياني ووجه الاختلاف مائل في الخلفية فخلفية المنوال التقليدي بيانية وخلفية المنوال اللساني العرفاني ذهنية، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى يفسر المنوال البياني الاستعارة في مستوى اللغة ويفسرها العرفانيون في مستوى الذهن وآلية التفكير ويمكن أن نمثل لهذا الاختلاف بالمثل التالي (البسيط):

فَأَمْطَرَتْ لَوْلَا مِنْ نَرْجَسٍ وَسَقَتْ وَزْدًا وَعَصَبَتْ عَلَى الْعُنَابِ بِالْبَرْدِ

هذا البيت أشهر بيت من حيث عدد الاستعارات، وهو من قصيدة غزلية مطوّلة للوَأواءَ الدمشقي، وقد جرت عادة البلاغيين على الاستشهاد به في شأن الاستعارة لأنّ فيه أنواعا مختلفة منها. وإن نحن وقفنا عند لفظ "لؤلؤا" وجدنا تحليلها في التصور البلاغي القديم يقوم على علاقة مشابهة بين بريق الدمع وبريق اللؤلؤ، فالشاعر شَبَّهَ شيئاً بشيء في مستوى اللغة، ومادام قد صرَّح بالمشبّه به فالاستعارة تصريحية جرت في اسم فهي أصلية. وأما من منظور نظرية المزج فالأمر مختلف إذ يكون الشاعر قد تمثل الدمع لؤلؤا وتصوره لؤلؤا لا من باب المشابهة على مستوى اللفظ بل على مستوى الإدراك الذهني. وسبب تمثل الدمع لؤلؤا هو أنّ اللؤلؤ أسبق في وجوده الذهني بحالته الطبيعية البراقة، فلما رأى الشاعر الدمع وهو عزيز نفيس في عيني حبيبته تمثله لؤلؤا واستخلص من صفات اللؤلؤ البريق والنفاسة وهذا المستوى من التفسير يجعل الدمع المبدول في أرقى مراتب الجمال في ذاته لا في اللفظ المعبر به.

*- خاتمة:

أردنا من خلال هذه الورقة أن نبين كيف يمكننا الاستفادة من مجلوبات المعارف الحديثة ومن بين هذه المعارف المنوال العرفاني وتحديد المنوال اللساني العرفاني وإمكانية الاستفادة منه في تطوير تدريس العربية في مناشط مختلفة واردة وعملية واعدة، فاقترحنا نظرية الطراز سبيلا لتدريس المعجم والصور الشعرية واقترحنا نظرية المزج سبيلا لتطوير درس الاستعارة. وليس هذا التأكيد على إمكانية الاستفادة منها سوى إيمان بأنّ المعارف البشرية تتطور بالتراكم وأنّ العلوم مهما ادعت الاستقلالية تتواشج وتتربط وتتداخل ليفيد بعضها بعضا.

*-الهوامش:

- 1- الشريف صلاح الدين: مقدمة كتاب "مدخل إلى النحو العرفاني لعبد الجبار بن غريبة"، ص 7-8.
- 2- غنيم أميرة: المزج التصوري: النظرية وتطبيقاتها. دار مسكلياني للنشر والتوزيع، ط1: 2019. ص:44.

- 3- Encyclopedia universalis: (1996 Corpus 6 p :65) : «Si les sciences cognitives ont, selon l'aphorisme de Howard Gardner, une histoire relativement courte, leur passé est très long :il remonte aux origines de la philosophie occidentale et plonge aux sources de certains des principaux courants scientifiques des temps modernes».
- 4- Encyclopedia universalis: (1996 Corpus 6 p :65) : «Il est néanmoins possible de situer les "causes immédiates" de l'avènement de ces sciences dans la periode qui s'étend entre le milieu des années 1930 et la fin des années 1940. Deux articles fondamentaux du grand logicien anglais Alan Turing encadrent symboliquement cette préhistoire».
- 5- Fauconnier)Gilles((1997 P:2): "The paradox that we know more about faraway galaxies than we do about the core of our own planet has a cognitive analogue: We seem to know a good deal more about the world around us than we do about our minds and brains".
- 6- الشريف صلاح الدين: مقدمة كتاب "مدخل إلى النحو العرفاني لعبد الجبار بن غريبة"، ص 7-8.
- 7- قريرة توفيق: "العرفاني في الاصطلاح النحوي العربي"، ص:9
- 8- غنيم أميرة: المزج التصوري: النظرية وتطبيقاتها، ص:60.
- 9- الزنّاد لزهر: "النص والخطاب"، ص:19.
- 10- Taylor (JOHN. R)(2002 (P:39): "If linguistics can be said to be any one thing it is the study of categories"
- 11- صولة عبد الله: "المَقُولَةُ في نظرية الطراز الأصلية"، ص:371.
- 12- المرجع نفسه، ص: 371.
- 13- البوعمراني، محمد الصالح: "المسألة الأجناسية (قراءة عرفانية)"، ص:259.
- 14- Fauconnier (GILLES) and Turner (MARK): (1998 P:133): "In blending, structure from input mental spaces is projected to a separate, "blended" mental space. The proiection is selective(...) Inferences, arguments, and ideas developed in the blend can have effect in cognition, leading us to modify the initial inputs and to change our view of the corresponding situations".
- 15- Ibid:P: 138
- 16- غنيم أميرة: المزج التصوري: النظرية وتطبيقاتها: ص:41.
- 17- المرجع نفسه، ص، 45.
- 18- المرجع نفسه، ص، 46.
- 19- الرج نفسه، ص، 42.
- 20- المرجع نفسه، ص، 42.
- 21- المرجع نفسه، ص، 42.

*- قائمة المصادر والمراجع:

1. البوعمراني محمد الصالح: "المسألة الأجناسية (قراءة عرفانية)": مجلة فصول: عدد 70 / 2007.
2. صولة عبد الله: المَقُولَةُ في نظرية الطراز الأصلية": حوليات الجامعة التونسية عدد 46/ 2002
3. الزناد لزهر: النص والخطاب: مباحث لسانية عَرَفَنِيَّة": مركز النشر الجامعي ودار محمد علي للنشر للطبعة الأولى 2011
4. الزناد لزهر: "نظريات لسانية عَرَفَنِيَّة": الدار العربية للعلوم ناشرون ودار محمد علي للنشر ومنشورات الاختلاف الطبعة الأولى 2010
5. بن غربية (عبد الجبار): "مدخل إلى النحو العرفاني": مسكلياني للنشر والتوزيع وكلية الآداب والفنون والإنسانيات بمنوبة تونس. الطبعة الأولى 2010.
6. غنيم أميرة المزج التصوري: النظرية وتطبيقاتها. دار مسكلياني للنشر والتوزيع: ص: 44. ط 1: 2019.
7. قريرة توفيق: "العرفاني في الاصطلاح النحوي العربي": كلية الآداب والفنون والإنسانيات- منوبة تونس 2007.
8. Encyclopedia universalis". Corpus 6 Paris France 1996.
9. Fauconnier Gilles: "Mappings in Thought and Language", University of California ,Sun Diego Cambridge University Press 1997.
10. Fauconnier Gilles and Turner Mark : "Conceptual Integration Networks" in COGNITIVE SCIENCE Vol22 (2) 1998, .
11. Taylor JOHN R : 2002 "Cognitive Grammar". Oxford University Press. Inc Newyork.